

الفصل السادس

بنية المجتمع وبنائه

- البنية والبناء .
- التحول السياسي والاجتماعى الشامل فى عصرنا .
- الإستابليشمنت : النظام القائم .

obeikandi.com

بنية المجتمع وبنائه

البنية والبناء :

ومن أظهر ما استحدثه وتكلم فيه أهل المادية التاريخية هو قولهم إن المجتمع - كل مجتمع - يتكون من جزئين رئيسيين: أولهما القاعدة أو البنية، وتسمى في مصطلحهم بلفظ ألماني هو Der Bau لأنهم جميعاً كانوا يكتبون بالألمانية، وترجم المصطلح بلفظ Structure عند الإنجليز والفرنسيين، أو ما يقابله في الإسبانية Es-structura، وفي الإيطالية Struttura ويراد به كل العناصر التي يتألف منها صلب المجتمع، فهي بنيته أو قوامه أو تركيبته، أما ما ينشأ فوق هذا الأساس أو البنية فيسمى عندهم البناء العلوى أو الأوبر باو Der Ueberbau أو السوبر ستراكشر. فالبنية هي الأساس الثابت للمجتمع، والبناء ما ينشأ فوق الأساس، وهو قابل للتغيير غير ثابت، فإذا أنت أخذت المجتمع المصري - مثلاً - وجدت أن بنيته تقوم على الزراعة التي تعتمد على غمر الأرض بالماء أو ريهها بآلات بسيطة؛ لأن الأرض سهلة منبسطة، ومثل هذه الزراعة التي تعتمد على ماء ميسور يأتي مع الفيضان، ولا تعتمد على مطر قد ينزل وقد لا ينزل، تولد في نفس الإنسان ركوداً أو ميلاً إلى الركود، ويصاحب ذلك اعتماد على قوة عليا هي التي تقوم بمعظم العمل؛ لأن الفلاح يبذر البذور، ولكنه لا يُطلع الثمر، وقد تعودنا - خطأ - أن نقول إن هذا النوع من الزراعة يولد في النفس الرغبة في التعاون مع الغير، وأن المجتمع المصري بطبعه مجتمع تعاوني، وهذا غير صحيح؛ لأن التعاون بين الناس في مثل هذا النوع من الزراعة يكون في البداية، أي أنه كان في بدايات التاريخ المصري القديم، فلما ثبتت الأرض على حال واحدة وزرعت عاماً بعد عام، استقر الأمر على صورة من التقليدية تولد في النفس شيئاً من البلادة أولاً، ثم يصاحبها بعد ذلك ميل إلى الانفراد بالعمل، والاستئثار بالأرض والخيرات بعد ذلك.. فكل فلاح يريد أن يكون مستقلاً بأرضه عن جيرانه، وفي نفسه ميل إلى أن يكون هو

وأولاده وآله عزوة واحدة مستقلة عن غيرها، وهذا يفسر لنا اتجاه الفلاح المصرى إلى الاستقلال بأرضه عن جاره، وميله إلى الانفراد بالخير من دونه، وإن كان ميالاً فى الوقت نفسه إلى أن يكون على صلة بجاره؛ لشئون المعاش وتبادل المنافع، فهو أنانى فردى فى المكان الأول، واجتماعى متعاون مع غيره فى المكان الثانى، وهذا الأزواج فى الشخصية والتصرف لباب شخصية المجتمع القروى. وهو متدين بالضرورة لأن الله - سبحانه وتعالى - هو الذى يطلع الثمر، ويهب الصحة والحياة والولد، ولكنه يتصرف فى تحلل من هذا الإيمان فى تصرفاته إذا اضطرتة إلى ذلك الضرورات. ومن هنا كان التظاهر بالتدين عنده أغلب فى تصرفاته على التدين نفسه، فهو حريص على أن يكون محترماً ملتزماً بالدين فى أعين الآخرين، وهو فى الوقت نفسه واثق من عفو الله عما يبدر منه من أخطاء فى الفكر والتصرف - يعترف بها أحياناً، ولا يعترف بها أحياناً أخرى فيما بينه وبين نفسه - وهو مطمئن إلى خير الأرض التى يزرعها، واثق من أنها لن تخذله، ولهذا فإن الغد لا يقلقه، وتفكيره فى المستقبل قليل، وهو قانع بهذا الطراز من الحياة، مجتهد فى المحافظة على كيانه وكيان أسرته الصغيرة، وهذه كلها خصائص إيجابية وسلبية تتكون منها بنية المجتمع القروى المصرى، الذى هو أساس المجتمع المصرى كله، وهذه البنية القروية التى تقنع بالعمل القليل وتطمع فى الرزق الكثير، لا تتأخر عن الاستيلاء على كل ما يتيسر لها الاستيلاء عليه غصباً إذا تيسر ذلك. هذه البنية الفردية هى التى تعتبر قاعدة التصرف الفردى والاجتماعى المصرى بصفة عامة، وهى قاعدة معقدة، ولكنها البنية التى تحكم كل البناء الذى يقوم فوقها. فكل مظاهر الحضارة والتنظيم الاجتماعى المصرى قائمة على هذا الأساس، وهذا الأساس هو البنية، وما يقوم فوقه وعليه هو البناء، وهذا التصوير لبنية المجتمع القروى المصرى قائم على نفس الطريقة التى يتبعها أصحاب التفسير المادى للتاريخ فى دراستهم وتحليلهم للمجتمعات، فهم واقعيون يسيئون الظن بالطبيعة البشرية، فى حين أن نظرنا نحن إلى مثل هذه الأمور نظرة متأثرة إلى حد بعيد بالعاطفة، والميل إلى خداع النفس، فنحن نقول مثلاً إن الفلاح إنسان طيب القلب، خير، متعاون، سليم الطوية فى كل حين، فى حين أن واقع الأمر وحقائق

التاريخ تقول غير ذلك. والماديون - وعلى رأسهم كارل ماركس - لا يحسنون الظن بالفلاحين قط، وهم يرون أنهم أعداء الحضارة والتقدم؛ لأنهم جامدون متمسكون بما ألفوه من أنماط الحياة دائماً، وهم أعداء التجديد والتغيير، أعوان لحكومات الظلم والاستبداد بسبب حرصهم على المحافظة على ما بأيديهم مهما كان قليلاً، وهم أعداء الحكومات، لأنهم لا يؤدون الضرائب إلا مرغمين، ونتيجة لهذا فإن الماديين يرون أن المدن - لا القرى - هي مراكز التقدم والتجديد، وأن الصناعة هي البنية الصالحة لإحداث التغيير الاجتماعي، والصناع أو العمال هم أساس الثورات والتغيرات الاجتماعية الكبرى، وإذا وضعنا الصناعة على أساس من العلم صحيح، أمكننا أن نقيم على هذا الأساس مجتمعاً إنسانياً قوياً تقدماً، هو أصلح بكثير من المجتمع القروي القائم على تدين زائف وإيمان غير صحيح بالعلم والعدالة وحقائق الحياة، والماديون لا يقولون هذا القول أو يؤمنون به إلا لأنهم يريدون إحداث التغيير الشامل للمجتمع، واستبدال قاعدته الدينية بقاعدة عملية تقوم على العلم والعمل في رأيهم، ولهذا فإن كل اهتمامهم موجه إلى العمل على تغيير البنية، فإذا تغيرت البنية أمكن تغيير البناء، وهم لهذا يقولون إن الدين ليس جزءاً من البنية، بل جزء من البناء، فهو - في نظرهم - ليس وحيًا من الله للأنبيا الذين أبلغوه للبشر، بل هو عندهم ابتكار إنساني وظاهرة اجتماعية - كما يقولون - قابلة للتغيير والتطوير أو الإلغاء .

التحول الاجتماعي والسياسي الشامل في عصرنا :

وهذا التفكير في البنية والبناء، أو البساو والأوبر باو - في الألمانية - أو الاستراكتشر والسوبر ستراكتشر - في الإنجليزية - هو أساس الفكر الاجتماعي عند الماديين، وهم يختلفون عن غيرهم اختلافاً جوهرياً من هذه الناحية، فنحن - الذين نؤمن بالدين - نرى أن الدين جزء من البنية، بل هو نواة البنية نفسها، فهو وحي من الله وإرادة إلهية، لا ظاهرة اجتماعية، أو فكر بشري . وقد قاموا بتجاربه في إحداث التغيير في المجتمع الروسي مثلاً، فقالوا إنهم غيروا بنيته وأحلوا العلم والتنظيم الشيوعي فيها محل الدين وقواعد الأخلاق التي جاءت بها الأديان. وقد تكون التجربة قد نجحت في روسيا والصين، ولكنها تمت عن طريق إبادة

مجتمعات كاملة وإحلال أخرى محلها، لا عن طريق تغيير بنية المجتمع. والمذابح التي أنزلها الشيوعيون بالناس في المجتمعات التي يسودونها لا تبرر قط النتائج التي وصلوا إليها، وزعموا أنها نتيجة ذلك العنف كله؛ لأن روسيا - مثلاً - لم تصل إلى حال القوة التي وصلت إليها بفضل الأفكار المادية، بل لأن الشعب الروسي نفسه شعب ضخم ذكى عامل يسكن أرضاً شاسعة تضم كل عناصر الثروة والقوة والعمل، وما وصلت إليه روسيا مع الشيوعية كان من الممكن أن تصل إليه عن طريق الحرية والديمقراطية وانتشار العلم، دون حاجة إلى العنف والدماء والمذابح. والعنف والمذابح لا تؤدي إلى خير قط، وبلاد مثل فرنسا وألمانيا وصلت عن طريق الحرية والعلم، ودون إلغاء الأديان أو محاربتها - على النحو الذي نراه في المجتمعات الشيوعية - إلى أسوأ مما وصل إليه الشيوعيون؛ لأن الذي تم في روسيا تم عن طريق أقلية مستبدة ترغم الناس على السير في الطريق الذي تراه بالعنف البالغ، وقد حرمت الناس من حرياتهم كلها؛ لكي تسيطر بقوة السلاح والإرهاب على مجتمع ضخم من حقه أن يعيش في هناء رخيٍّ الظروف والمعاش، بل إن هذا التحول الخطير في المجتمع الروسي قد جعل ذلك المجتمع خطراً على بقية المجتمعات؛ لأن الأقلية المسيطرة على الشعب بالقوة لا هم لها إلا صنع السلاح لحماية مجتمعها من الانهيار، والحيلولة دون الشعب وأى تحرك نحو الحرية واحترام حقوق الإنسان؛ لأن الإنسان فيه - بصفته كائناً حياً له قدره واحترامه وحقوقه - لا وجود له في البناء الشيوعي، ونحن بطبيعة الحال لا نؤمن بفضائل المجتمع الرأسمالي المعادي للشيوعية، ونعرف أنه - كذلك - مجتمع ظالم أناني حافل بالشور والفساد، ولكن عندما يخير الإنسان بين العنف العسكري والاستبداد والحرمان من الحريات، وبين رذائل المجتمع الرأسمالي الأناني المستبد على طريقته؛ فهو يختار أهون الشرين، إلى أن تيسر للبشر ظروف يستطيعون أن يجدوا فيها للسعادة والرخاء والعدالة طريقاً آخر غير هذين، ويشهد المجتمع الغربي في عصرنا تحولات وتغييرات في غاية من الخطورة؛ لأن الحضارة الغربية - وهي الحضارة الغالبة على عصرنا - دخلت من أوائل هذا القرن في مرحلة التوسع والسيطرة على البشر،

جعلت منها ما يسميه أرنولد توينبي بالحضارة العالمية أو الجماعة العالمية Universal Church، نتيجة لابتلاعها كل ما استطاعت ابتلاعه من عناصر الحضارة المعاصرة، فدخلت في تركيبها اليوم عقائد غير مسيحية مثل البوذية والهندوكية، وظواهر حضارية غير غربية مثل الموسيقى الزنجية، وهي عناصر من حضارة (البدائيين) وما يعرف باسم البريميتيفيزم Primitivism وأخذوا من الهند والصين أشياء مثل اليوجا والكاراته، وكل ذلك ناشئ من أن بنية مجتمعهم تخلخلت وفقدت تماسكها الأول، فانتشر فيها الإلحاد، وانعدام الحياء، حتى أصبح كشف المرأة عن جسدها كله أمراً عادياً لا يستنكره الكثيرون، وانتشرت المخدرات، ومُذَهَبَات الوعى الكيميائية من مثل عقار إل . إس . دى . L. S. D.، التي يتعاطاها الكثيرون، وخاصة من الشبان والشابات، هرباً من الواقع، وفقدان الصغار احترامهم للكبار، وزالت هبة الرجل من عين المرأة، وفقدت المرأة حياءها الذي هو أكبر أسلحتها، وهكذا تجاوزت واختلطت في تلك الحضارة الغربية اليوم عناصر شتى غريبة عن طبيعة الحضارة الغربية، ففسدت كما فسدت طبيعة الحضارة الرومانية من قبل نتيجة لما يسميه توينبي باسم Promiscuity وهي المخالطة الجنسية غير المشروعة، وتوينبي يسميها باسمها اليوناني Promixia، ويريد بها: تخلخل بناء حضارة من الحضارات وبداية تدهورها نتيجة لدخول عناصر حضارية غريبة عنها وتزاوجها بها تزاوجاً غير طبيعي، أى: غير شرعى، وفي هذه الحالة: حالة تقلقل قواعد المجتمع نتيجة لفساد البنية في ذاتها نجد المسؤولين عن الجماعة الغربية يبحثون عن وسائل عنيفة لتأمين مجتمعهم من الضياع، وما دامت المناعة الداخلية للمجتمع قد ضعفت، ولم تعد كافية للحفاظ على المجتمع، فإن حكومات الغرب لجأت نتيجة لذلك إلى استخدام أساليب العنف؛ للحيلولة بين مجتمعهم والانفراط، وإذا كان الرومان عندما دخلت حضارتهم فى دور العالمية قد تحولت دولتهم إلى استبدادية عسكرية غاشمة، فكذلك تحاول القوى الكبرى اليوم المحافظة على أنفسها بأسلحة مخربة، كما نرى فى الأسلحة غير التقليدية والأسلحة الذرية، وهذه كلها ظواهر قوة وخطر، وعلائم مرض اجتماعى حضارى، تنشأ عن عوامل ضعف وخوف، وفى مثل هذه

الظروف يشتد الخطر على الجماعات الصغيرة التي يمكن أن تزول تحت ضغط القوى الكبرى، أو في أثناء صراعتها بعضها مع بعض. وفي عصور تدهور الدولة الرومانية، وصراعها مع الشعوب الجرمانية التي كانت تهاجمها ارتكبت جيوش الرومان شناعات وبشاعات، وأبادت أمماً صغيرة كثيرة، ومثال ذلك أن سكان بلاد اليونان القديمة زالوا وحل محلهم الصقالبة.

وفي يومنا الحاضر يشتد الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية أو الشيوعية والرأسمالية، وكتاهما فقدت كل مقومات مجتمعهما القديم، أو انهارت بنيتها. فالكتلة الشيوعية مثلاً أنشأت لنفسها بنية جديدة قائمة على القوة العسكرية الغاشمة التي تستر وراء الفكر المادى الماركسى، أما الكتلة الغربية فهي كتلة الحضارة الغربية التي دخلت بالفعل في دور انحلالها وتفككت بنيتها، ولم تعد لها مناعة داخلية فاتجهت إلى الحماية الخارجية عن طريق التسليح والإنفاق في غير حساب على غزو الفضاء وما إلى ذلك؛ مما يدل حقيقة على أن حضارة الغرب التي كانت قائمة على بنيتها التقليدية قد تضعضعت، وبدلاً من أن تقوم على الأخلاقيات فهي تقوم اليوم على قوة المال وقوة السلاح. وهي في الحقيقة خاوية الروح، وأبسط الظواهر التي تدل على ذلك هو زوال الأمن، ففي بلاد الغرب الكبرى لا يأمن الإنسان على ماله أو نفسه، ولا تأمن امرأة على نفسها، والمعتدى على النفس والمال، والمعتدى على العفاف لا يلقي جزاءه؛ لأن إطارات المجتمع كله قد تداعت، ولم يعد يحفظها إلا المال والبوليس والقوة العسكرية، وهذه كلها أمور يتنبه لها المؤرخ الواعى لحركة التاريخ وديناميكيته، ولا يتنبه لها السياسى؛ لأن السياسى مشغول بمشاكل الساعة التي هو فيها، والأزمات التي تظهر أمامه ومن حوله. أما المؤرخ فهو راصد لحركة المجتمع والتاريخ، وهو المسئول في النهاية عن مسار أمته ومصير شعبه، وقد ظهر عجز الفلسفة عن مداواة أمراض البشرية أو إنقاذ الحضارة، وكذلك وقف علم الاجتماع عند حد محدود في بحثه عن أدواء المجتمع، وأنت تقرأ عالماً عظيماً من علماء الاجتماع مثل ليفى شتراوس فتجد عنده وصفاً أو تحليلاً، ولكنك لا تجد عنده حلاً. وربما كان عمل المؤرخ وتيقظه - كما هي حالة رجل مثل أرنولد توينبى - أجدى على الإنسانية من عمل أى متخصص آخر، وهذا يزيد في مسئولية المؤرخين.

وقد استعملت هنا مصطلح التركيبة الاجتماعية Social Structure وأحب أن أضيف هنا مصطلحاً أحدث وأشمل ، وهو مصطلح المؤسسة أو الإستابليشمنت The Establishment ، وهو من مبتكرات المدرسة الماركسية فى التاريخ، ويراد بها كل العناصر المكونة للمجتمع، أى: الحكومات والطبقات السائدة من أهل السلطان السياسى والجاه المالى والتفوق الفكرى والمَسُودة من العمال البدنيين الذين لا يملكون أى مهارة فنية والفقراء والمعدمين، بل يدخل فيها الوسطاء واللصوص والقائمون على نواحي الرذيلة - منظمة كانت أو غير منظمة - مثل تجار المخدرات والخمور ومدمنيها، والدعارة والبغاء، وكل المشتغلين بها من حرافيش وصعاليك؛ لأن هذه كلها لها تأثير فى المجتمع ودور فيه، والذين يدرسون المجتمع العباسى فى عصر المأمون مثلاً يرون بوضوح كيف أن هذه الأنواع من الناس - وما يمارسون من حرف مقبولة أو مردولة - لها دور وأثر فى المجتمع ودور تاريخى فيه، ولا تتم صورة المجتمع إلا به. وأهم ما فى الإستابليشمنت - والمراد بها النظام القائم - هى الطبقة الحاكمة ونظام حكمها، وهما معاً يكونان ما يعرف بالنظام القائم أو الريجيم Le Régime، ويدخل فى الطبقة الحاكمة كل ذى سلطان مباشر أو غير مباشر، مثل: رجال الدين، وأهل الأدب المقربين من الحكام والأغنياء أصحاب رءوس الأموال، والعسكريين، والقائمين على الأموال من رجال المالية إلى جباة الضرائب. وهذه الطبقات بمختلف تكويناتها تدخل فى الريجيم والإستابليشمنت، وفقهاء العصر المملوكى مثلاً كانوا جزءاً لا يتجزأ من الريجيم، أى: الطبقة الحاكمة، فهم يؤيدونهم ويحللون ما يصنعون، فلا نخدع أنفسنا بما كان بعض كبار فقهاء ذلك العصر يتحدثون عنه من الدين والتقوى والورع، وما كانوا يصعدون من فتاوى، فهم فى الحقيقة جزء من النظام، ولهم مسئوليتهم عما كان فيه من ظلم وفساد، مثلهم فى ذلك مثل رجال الدين فى النظام الفرنسى قبل الثورة، أو ما يسمى باسم L'Ancien Régime ، ولا يدهش الإنسان عندما يقرأ ما يكتبه شارل لا برون عن صلات التعاون والتساند التى كانت تربط بين كبار رجال الدين فى فرنسا قبل

الثورة وخليعات العصر وعشيقات الملوك، من أمثال مدام دبابادور، ومدام ريكامبيه، فهؤلاء أيضاً كُنَّ جزءاً من الريحيم ومن الإستابلشمنت، أى : النظام القائم نفسه، ولهن فيه دور وسلطان، وكان الكاردينال ريشيلو والأسقف جول مازاران اللذان سيطرا على السياسة الفرنسية قبل عصر لويس الرابع عشر وأثناءه يستعينون بالسفاحين والأراذل والخليعات والمتبدلات فى الوصول إلى غاياتهم السياسية، وهم - على هذا - كانوا جزءاً من الإستابلشمنت، ومن دراسة لابروز يتبين أن المحظيات كُنَّ نظاماً قائماً، يبدأ من محظيات الملوك، ثم محظيات الأشراف، ثم من يليهن، حتى نصل إلى العاهرات العاديات، وفى هجوم أدولف هتلر على النظام السابق عليه فى ألمانيا يتحدث عن اليهود والماسون - أى : البنائين الأحرار - والشيوخيين ويعتبرهم جزءاً من الإستابلشمنت الفاسد الذى كان يقول إنه أتى للقضاء عليه، وقد كان القضاء على هذه الجماعات مرحلة أساسية من مراحل إقامته لنظامه الجديد، وهو الاشتراكى الوطنى Nazional Socialismus الذى يعرف عادة باسمه المختصر النازى Nazi، وقد حل نظام هتلر محل النظام القديم، وكان يتكون من الحزب، والقوة الضاربة الحزبية من أصحاب القمصان البنية، وكبار الرأسماليين الذين وظفوا رءوس أموالهم فى خدمة الحزب، ثم الجيش، وقوات الشباب الهتلرى، أو الهتلر يوجند Hitler Jugend، والبوليس السرى للدولة Geheimstaats Polizei، وهو ما يعرف بالجستابو، وفى الولايات المتحدة الأمريكية تدخل المافيا والجريمة المنظمة عناصر أساسية فى الإستابلشمنت - أى : النظام القائم - ولها دور كبير فيه هناك .

ولابد - لدراسة النظام القائم فى كل عصر - من دراسة جميع مكونات الإستابلشمنت، سواء أكانت فاضلة أم غير فاضلة، وأساسية أم ثانوية. وما عليك إلا أن تدرس الكتب التى ألفها كاتب أمريكى مشهور هو جون جنتر John Gunter عن دواخل الأمور فى نواحي عالمنا الحالى، وهو يسميها كتب الدواخل The Insides مثل Inside Europe وInside The United States وغيرها . وفى الكتاب الأخير تتجلى لك الحقائق التى ذكرناها عن «الإستابلشمنت»،

أو النظام القائم فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأنت ترى فى هذا الكتاب كيف أن ممثلى القوى الفاضلة من القضاة ورجال القانون وأساتذة الجامعات وأفاضل رجال الدين وأصحاب الشركات الأمنية، وبعض أعضاء الكونجرس يتعاونون بصورة غير مباشرة مع رجال الرذيلة من وسطاء وأهل الأروقة The Lobbyists وجواسيس يطلعون على أسرار الناس ليتاجروا بها، ونصابين وسفاحين محترفين ومهربين ومصارف وهمية يعتمدون عليها فى تسيير أمورهم.

والإستابليشمنت - أو الريجيم، أو النظام القائم - هو الصورة العامة الظاهرة للبناء الاجتماعى، والسياسى، فى أى دولة من الدول.. ويسمى فى مصطلح الشيوعيين بالأوبر باو، أو السوير ستراكشر. وهذه الصورة فى تغير دائم بحسب الظروف ومطالب السياسة. ويزعم الشيوعيون أنهم أزالوا من مجتمعهم الفواصل بين البنية والبناء، وأن مجتمعهم الشيوعى بنية واحدة سليمة، وهذا وهم وخداع؛ لأن البنية عندهم هى المؤسسة العسكرية التى تؤيد الشيوعية؛ لأنها وسيلة مستورة لتمكين العسكريين من السيطرة على المجتمع، والمؤسسة العسكرية الروسية هى الحارسة على أضخم بناء رأسمالى استعمارى استبدادى عرفه التاريخ، وهو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. والرأسمالية هنا تتمثل فى الدولة.. ورأس المال هو الجيش والأسلحة بكل أنواعها.

ومصطلح «الإستابليشمنت» - أو النظام القائم - معروف من أوائل القرن الثامن عشر، ولكن الاشتراكيين والشيوعيين هم الذين أعطوه معنى التركيبية السياسية والاجتماعية الذى ذكرناه؛ لأنهم عندما بدأوا يدبرون إحداث الانقلاب الشامل فى النظم القائمة اتجهوا إلى القضاء على النظم القائمة بكل مقوماتها ومؤسساتها ورجالها وحواسيهم وأتباعهم على مذهب نيتشايف فى النهلية أو اللاشيئية، أى: القضاء على كل شىء قائم، وإحراق الأرض لإقامة نظام جديد - كما قلنا - ومن هنا فقد أخذ اللفظ ذلك المعنى الشامل لأى نظام كامل وكل ما يتصل به. وقد نجح الشيوعيون فى إقامة التنظيم الشيوعى الجديد الكامل الذى يعتبر كل أهل البلد داخلين فى الإستابليشمنت، فلا يقتصر النظام القائم على

الهيئة الحاكمة وما يتصل بها، وإنما الأمة كلها بكل طبقاتها داخلة فى النظام القائم، ورياسة النظام - وهى الحزب الشيوعى - صاحبة حق كامل مطلق فى حياة كل المواطنين وأمواهم ، وصاحب الفضل فى تطبيق هذا التفكير هو لينين ، فقد عرف بالعقل كيف يدخل كل الشعب الروسى وما خضعت له من شعوب أخرى فى هيئة جمهوريات اشتراكية بالاسم، ولكن معظمها مستعمرات تستغل وتستخدم لخدمة التنظيم الجديد ، ولكن تطوراً مهماً وقع فى أيام ستالين وهو أن التركيبة الشيوعية الحاكمة انحصرت بشكل حاسم ونهائى فى الحزب ورجاله، والحزب يعتمد أساساً على القوة العسكرية، فعادت روسيا بذلك إلى صورة جديدة من النظام القائم القديم - أى : الأقلية التى تحكم بقية الشعب - وهو نظام يختلف عما نقرأه عند كارل ماركس ، ونجده فى تطبيقات لينين ، ولهذا تسمى الاشتراكية الأصيلة - عندهم - ماركسية لينينية ، أما نظام الحزب الشيوعى الحاكم بتأييد الجيش فهو من التطورات التى حدثت أيام ستالين - كما قلنا - واستمرت بعد ذلك أيام مالينكوف ، وخروشوف ، ثم ليونيد بريجنيف ، وكوسيجين ، ومن جاء بعدهم من حكام الاتحاد السوفيتى .

وفى داخل كل نظام قائم (إستابلشمنت) توجد هيئات قائمة بذاتها تسمى أيضاً إستابلشمنت، وقد تعودنا أن نسميها بالمؤسسات، ولا بأس بالتسمية؛ لأنها توجد تفريقاً ضرورياً بين مصطلح النظام القائم ومصطلح المؤسسات الداخلة فيه، مثل المؤسسات العسكرية ، ويراد بها القوات المسلحة . والمؤسسة القضائية، ويراد بها كل الهيئات العاملة فى ميدان خدمة العدالة، بما فى ذلك المحامون. والمؤسسة المالية The Monetary Establishment ، بل هناك مؤسسة المصارف Banking Establishment ، وما إلى ذلك .

ولابد لكل تركيب سياسى من نظم يقوم عليها، وهى القوانين الخاصة بالدولة عموماً وأولها الدستور، ثم القوانين الخاصة بتنظيم كل ناحية من نواحي العمل أو أى نوع من أنواع المعاملات، أى أن النظم Institutions هى صميم التركيب السياسى الاجتماعى فى أى دولة، وعلى سلامة النظم وحسن عملها وطريقة

تطبيقها، ومدى احترام الناس لها، تتوقف سلامة النظام كله وقوته داخلياً وخارجياً.

وبصفة عامة: يمكن أن يقال إنه كلما كثرت القوانين وتلاحقت ، وأعقب بعضها بعضاً ؛ كان ذلك دليلاً على ضعف النظام كله ، نتيجة لهشاشة مؤسساته ، كما نرى في بلاد العالم الثالث .

وأسوأ النظم هو نظام الحكم الفردى، والحكم بمراسيم رئاسية أو تشريعات عاجلة مرتجلة تخدم الحاكم نفسه، أو آله وحواشيه، وذلك أيضاً شائع في دول العالم الثالث الفقير. وقد ابتكر أهل أمريكا اللاتينية نظام الخونتا La Junta أو الخونتا ميليتار La Junta militar وهي جماعة من الضباط تستولى على الحكم بالقوة، وتحكم استبدادياً حتى تتألف جماعة أخرى وتزيلها لتحل محلها. وفي إسبانيا وأمريكا اللاتينية أيضاً ظهر ما يسمى باسم Guerrilla الجرياً، وهو مصغر لفظ Guerra أى: الحرب، فالجرياً - لا الجيريللا- هي الحرب الصغيرة، أو حرب العصابات، وهي ليست شراً دائماً، لأنها في الواقع شر نشأ عن شر، بمعنى أنه لما أثقل المستبدون على الناس بالظلم قامت عليهم جماعات الثوار، وحروب الجرياً.

ومهما قيل في أعمال الثوار الذين يسمون أيضاً بالإرهابيين Terroarists فهي ناشئة عن الظلم، ولولا الطاغية لما كان رجال الحروب الصغيرة Los Guerrilleros أو الإرهابيون، وهذه الأخيرة تسمية تعسفية؛ ففي بعض الأحيان يكون المسمون بالإرهابيين هم أصحاب الحق، أى هم النظام الشرعى الذى ينبغى أن يحكم، فى حين أن السلطان القائم بالقوة يكون هو الإرهاب، وأصحابه الذين تعترف بهم الدنيا أحياناً يكونون هم الإرهابيين، والخارجين على القانون، وهذه الظاهرة توجد - اليوم - فى فلسطين المحتلة .
